شرحُ نصوص مُختارة

من الكتاب والسنّة وكلام الأئمّة

الجزء الثّاني

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]

اختيار وشرح

أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

عضو هيئة التدريس بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

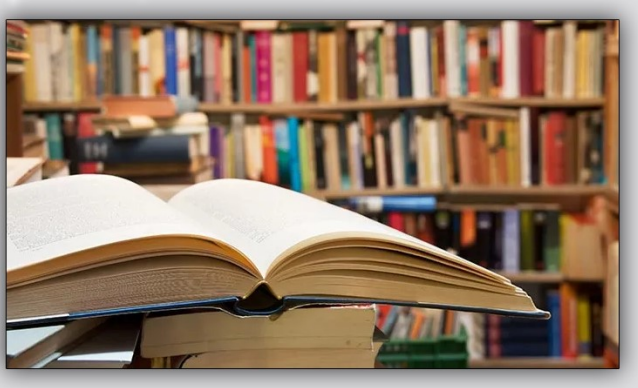

١٤٤٦/٤ هـ

المزيد من كتب الدكتور
أحمد الزهراني

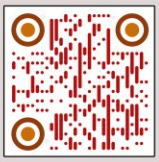

المزيد من الكتب
على المنصّة

جميع الحقوق محفوظة

منصة أوراق عربية - www.aawraq.com
أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني.
ترخيص وزارة الإعلام رقم (١٤٩٨٣٧)
موقعها الجغرافية : جدة - المملكة العربية السعودية
هاتف: (٠٥٤٤٥٠٢٤٨٣)
البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة : tinfo@aawraq.com

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة المنصة (أوراق عربية)
حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

تنبيه
الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية

شرحُ

نُصوص مُختارة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُلله، نحمدُه تعالى ونستعينُه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أمّا بعد:

فهذا هو الجزء الثّاني من سلسلة (**شرح نصوص مختارة .. من الكتاب والسنة وكلام الأئمّة**)، الذي يتناول شرح قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهذه السلسلة هي مجموعة أبحاث تجمعت عندي، فآثرت أن أنظمها في سلسلة بهذا العنوان، ليكون الانطلاق في طرق المسائل العلمية من نصوص الوحي أو من كلام أئمّة السف وأهل العلم في الدين عقيدة وشريعة.

وحرصت أن لا تكون خليّة من جديد إما في ترتيب، أو جمع نصوص، أو توجيه كلام، ونحو ذلك كما قال السّبكي: «وأنا دائماً أستهجن ممّن يدّعي التّحقيق من العلماء إعادة ما ذكره الماضون، إذا لم يضم إلى الإعادة تنكيتاً عليهم، أو زيادة قيدٍ أهملوه، أو تحقيقٍ تركوه أو نحو ذلك مما هو مرام المحققين،... إنّما الحَبْر من يملي عليه قلبه ودماغه»[1].

وقد اخترت أن تكون متوسطة بين الاختصار المخل والتطويل الممل، صالحة لصغار الطلبة من أمثالي، تاركا التطويل والإسهاب لمن مكّنهم الله من وديان العلم وشعابه، من أهل الدراية بالعلم بالكتاب والسنة.

ولم أثقله بكثرة التراجم والحواشي، بل كل ما يُستغنى عنه مما ليس من صميم البحث فإني أدعه لفطنة القارئ ودرايته، الذي أظنه لا يخفى عليه ولا يصعب أن يجده في مظانه من المصادر، خاصة مع توفر محركات البحث وخزائن الكتب الإلكترونية.

أسأل الله تعالى أن لا يحرمني أجره، وأن يكفيني أشره وبطره، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

https://prof-ahmadza.com/

azahrany@gmail.com

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٩٩ـ١٠٠) بتصرف.

(٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

[البقرة: ٢٦٠]

هذه الآية العظيمة الجليلة القدر الواردة في سورة البقرة من الآيات التي حصل فيها كلام كثير، سببه مافيها من توهّم أنّ إبراهيم عليه السلام شكّ في قدرة الله تعالى، أخذاً من طلبه معاينة إحياء الموتى، ومن قوله كذلك إنّ سبب هذه الطلب هو الوصول إلى حال طمأنينة القلب، وهذا مشكل من جهة كون ذلك شكاً في فهم البعض، وإذا قيل إنه ليس بشك فهو مشكل كذلك من جهة أن إبراهيم لم يكن موقناً اليقين الواجب من مثله، كما أنه مشكل على مذهب المتكلمين الذين لا يؤمنون بتفاوت اليقين أو الإيمان.

ومن المعلوم من الدين ضرورة أنّه لا يصحّ إسلام العبد ولا إيمانه إلاّ بالإقرار بشهادة التوحيد وما تضمنته من التوحيد والإيمان بكل ما جاء به النّبيّ ﷺ عن ربه تبارك وتعالى من العلوم الخبرية، والأحكام الشرعية العملية، تصديقا وامتثالاً، ولهذا لم تختلف كلمة أهل الإسلام على اشتراط اليقين بما جاء عن الله ورسوله ﷺ وانتفاء الشك عن الإيمان في صحّته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وهذه الآية –ومثلها آية أخرى سنمر بها –توهم تعارضاً مع هذا الأصل، ولهذا كان من الواجب النظر فيها وبيان وجهها الصحيح، وأنها متسقة مع أصول الإسلام ولا تتعارض مع درجة الخليل عليه السلام ومقامه في الأنبياء. وبالله الاستعانة.

أولا: أقوال المفسرين والأئمة في الآية(١).

ورَدَ للمفسرين كلام طويل في هذه الآية، ومعنى سؤال إبراهيم، ومعنى الطمأنينة، التي

(١) لا ألتزم ترتيبا في إيراد شيء من الأقوال، وكل أقوال المفسرين الواردة في مظانها لن أقوم بعزوها.

نَشَدها، أمّا سبب سؤاله فقال ابن الجوزي في زاد المسير: «في سبب سؤاله هذا أربعة أقوال:

أحدها: أنه رأى ميتة تمزقها الهوام والسباع فسأل هذا السؤال، وهذا قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وابن جريج، ومقاتل.

والثاني: أنه لما بُشّر باتخاذ الله له خليلاً، سأل هذا السؤال ليعلم صحة البشارة، ذكره السدي عن ابن مسعود، وابن عباس. وروي عن سعيد بن جبير أنه لما بشر بذلك، قال: ما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك، ويحيي الموتى بسؤالك، فسأل هذا السؤال.

والثالث: أنه سأل ذلك ليزيل عوارض الوسواس، وهذا قول عطاء بن أبي رباح.

والرابع: أنه لما نازعه نمروذ في إحياء الموتى سأل ذلك ليرى ما أخبر به عن الله تعالى، وهذا قول محمد بن إسحاق».

قلت: الأوّل والثالث راجعان إلى نفس المعنى، وأما الثاني والرابع وغيرهما مما ذكر في الكتب فيأباه سياق الآية.

قال الأخفش في معاني القرآن: « أما قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فلم يكن ذلك شكاً منه، ولم يُرِد به رؤية القلب وانما أراد به رؤية العين.

وقوله الله عز وجل له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾، يقول: "أَلَسْتَ قَدْ صدَّقت" أَيْ: أنت كذاك، قال الشاعر:

أَلَسْتُمْ خيرَ مَنْ رَكِبَ المطَايا * وَأَنْدى العالِمِينَ بُطُونَ راحِ

وقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: قلبي ينازعني الى النظر فاذا نظرت اطمأن قلبي ».

قلت: جواب إبراهيم يردّ هذا التأويل، ولو كان السؤال للتقرير لما أجاب بـ(**بلى**).

روى الطبري عن أيوب، في قوله: ﴿وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال: قال ابن

عباس: «ما في القرآن آيةٌ أرْجَى عندي منها».

و عن ابن جريج، قال: سألت عطاء بن أبي رباح، عن قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال: دَخَل قلبَ إبراهيم بعضُ ما يدخل قلوب الناس، فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾ ، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] لِيُرِيَه ".

و ذكر حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم، قال**: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]»[(١)].

ثمّ قال الطبري بعد ذكر الأقوال في الآية: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، ما صحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**نحنُ أحق بالشك من إبراهيم، قال**: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾" وأن تكون مسألته ربَّه ما سأله أن يُريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرضَ في قلبه، كالذي ذكرنا عن ابن زيد آنفًا من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر، قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء؟ فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليعاين ذلك عيانًا، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقى».

قال الواحدي: «قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال أكثر المفسرين: رأى إبراهيم جيفة بساحل البحر تتناولها السباع والطير ودواب البحر، ففكّر كيف يجتمع ما قد تفرق من تلك الجيفة، وتطلّعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] فقال الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ وهذه الأَلِف للإيجاب والتقرير، يعني: أولست قد آمنت؟ ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] برؤية ما أحب

(١) أخرجه البخاري (ح٣٣٧٢) ومسلم (ح١٥٥).

وأشتهي مشاهدته، قال الحسن: كان إبراهيم موقنا بأن الله عز وجل يحيي الموتى، ولكن لا يكون الخبر عند ابن آدم كالمعاينة.

وقال سعيد بن جبير: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]: لأزداد إيماناً».

وقال السمعاني: «فإن قال قائل: أكان إبراهيم شاكاً فيه حتى احتاج إلى السؤال، وما معنى قوله عليه السلام: " **نحن أحق بالشك من إبراهيم؟** ".

والجواب: أنه لم يكن شاكاً فيه، ولكنه إنما آمن بالخبر والاستدلال، فأراد أن يعرفه عياناً.

قال عكرمة: ليزداد يقيناً على يقين؛ لأنّ العيان فوق الخبر في ارتفاع العلم، وقد قال عليه السلام: " **ليس الخبر كالمعاينة** "[1].

وأما قوله: ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ؛ وذلك أنه لما سأل ذلك تعلق به قلبه، فقال: ولكن ليطمئن قلبي عن ذلك التعلق.

وقيل: إنما قال ذلك لأن الله تعالى لما اتخذه خليلا، قال ملك الموت: يا رب، ائذن لي حتى أبشره؛ فبشره بأن الله اتخذك خليلا فأراد أن يريه الله إحياء الموتى تخصيصا له بكرامته؛ ليطمئن قلبه بالخلة.

وقيل معناه: ولكن ليطمئن قلبي، فأعرف أني إذا سألتك أعطيتني، وإذا دعوتك أجبتني.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٢) والطبراني في الأوسط (٢٥) والحاكم في المستدرك (٣٢٨٩) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٥٦٢) و(٨/ ٥٢٣) وغيرهم، من طريق هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، لكن الترمذي في علله الكبير (٣٨٧) قول أحمد بن حنبل: «لم يسمع هشيم حديث أبي بشر ، ليس الخبر كالمعاينة»، قال ابن عدي في ترجمة هشيم (٨/ ٤٥٣) بعد أن روى الحديث: « ويقال: إن هذا لم يسمعه هشيم من أبي بشر إنما سمعه من أبي عَوَانة، عَن أبي بشر فدلسه » وذكره كذلك عن يحيى بن حسان، وحديث أبي عوانة أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢١٤) وابن عدي في الموضع السابق، وإسناده صحيح .

وأما قوله: " نحن أحق بالشك من إبراهيم " إنما قاله على سبيل التواضع، يعني: نحن دونه، وأحق بالشك منه، فإذا لمن نشك نحن فكيف يشك إبراهيم».

قلت: والقولان الأخيران لا دليل عليهما يصحّ من خبر مرفوع أو قول صاحب.

قال الراغب: «إن قيل: إن كان إبراهيم في هذه الحال شاكاً في البعث فلِمَ لما قيل له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾ والشاكّ في الشيء لا يجوز أن يكون مؤمناً به، وإن كان موقناً فلا معنى لقوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فلا اضطراب للقلب مع اليقين، فإذاً هذا قولٌ متناقض ؟

قيل: إنّ إبراهيم كان موقناً بالبعث أنه كائن، للاستدلال أولاً، وللوحي ثانياً، وإنّما التمس غاية التفسير وهو العيان الذي تنقطع عنده الخواطر كلّها، فالخاطر ضربان، خاطر في ثبوت الشيء ونفيه، وخاطر في كيفية ثبوته، والأوّل يزول بالخبر، والثاني لا يزول إلاّ بالعيان، وهذا هو حال إبراهيم».

وقال ابن عطيّة: «اختلف الناس لم صدرت هذه المقالة عن إبراهيم عليه السلام؟ فقال الجمهور: إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة، وترجم الطبري في تفسيره فقال: "وقال آخرون: سأل ذلك ربّه لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى" وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن آية أرجى عندي منها، وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى؟﴾ وذكر حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "**نحن أحق بالشك من إبراهيم..**"الحديث.

ثم رجّح الطبري هذا القول الذي يجري مع ظاهر الحديث، وقال: "إنّ إبراهيم لما رأى الجيفة تأكل منها الحيتان ودواب البر ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذه من بطون هؤلاء؟"

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأول.

فأمّا قول ابن عباس: "هي أرجى آية" فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله، ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أي إن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقير وبحث.

وأما قول عطاء بن أبي رباح: "دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس" فمعناه من حبّ المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا قال النبي عليه السلام: "**ليس الخبر كالمعاينة**"[1].

وأما قول النبي عليه السلام: "**نحن أحق بالشك من إبراهيم**" فمعناه: أنه لو كان شك لكنّا نحن أحق به ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى أن لا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم.

والذي روي فيه عن النبي عليه السلام أنه قال: "**ذلك محض الإيمان**"[2] إنما هو في الخواطر الجارية التي لا تثبت، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام.

وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلك على ذلك قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فالشك يبعد على من ثبتت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوءة والخلة، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعا.

---

(١) تقدّم (ص٩).

(٢) صحيح مسلم(١٣٣) عن ابن مسعود، و(١٣٢) عن أبي هريرة بلفظ: «ذاك صريح الإيمان».

وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً، وذلك أنّ الاستفهام بـ(كيف) إنما هو عن حال شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت: كيف ثوبك وكيف زيد، فإنما السؤال عن حالٍ من أحواله، وقد تكون (كَيْفَ) خبراً عن شيء شأنه أن يستفهم عنه، كَيْفَ، نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: "كيف كان بدء الوحي"، و(كَيْفَ) في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء مُتَقرّر.

ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح، فليزم من ذلك أنّ الشيء في نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول له المكذب: أرني كيف ترفعه؟ فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول افرض أنك ترفعه أرني كيف؟ فلما كان في عبارة الخليل عليه السلام هذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك وحمله على أن يبين الحقيقة فقال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾، فكمل الأمر وتخلص من كل شك، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

قال القاضي أبو محمد: وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ معناه إيماناً مطلقاً دخل فيه فصل إحياء الموتى، والـ(واو) واو حال دخلت عليها ألف التقرير، و﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾ معناه ليسكن عن فِكْره، والطمأنينة اعتدال وسكون على ذلك الاعتدال فطمأنينة الأعضاء معروفة، كما قال عليه السلام: "**ثم ارْكع حتى تطمئن راكعاً**"، الحديث[1]، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فِكْرَه في الشيء المعتقَد.

والفِكْر في صورة الإحياء غير محظورة، كما لنا نحن اليوم أن نفكّر فيها، بل هي فكر فيها

(١) أخرجه البخاري (٧٥٧) ومسلم (٣٩٧) وهو حديث المسيء صلاته.

عبر، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فِكْرُه في صورة الإحياء، إذ حرّكه إلى ذلك إمّا أمر الدابة المأكولة وإمّا قول النمرود: "أنا أحيي وأميت".

وقال الطبري: معنى ﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾ : "ليوقن"، وحكى نحو ذلك عن سعيد بن جبير، وحكى عنه "ليزداد يقيناً"، وقاله إبراهيم وقتادة، وقال بعضهم: لأزداد إيمانا مع إيماني.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ولا زيادة في هذا المعنى تمكن إلاّ السكون عن الفِكر، وإلا فاليقين لا يتبعض».

قال ابن القيّم رحمه الله: «قال [1]: وفِرار الخاصة من الخبر إلى الشهود، ومن الرسوم إلى الأصول، ومن الحظوظ إلى التجريد.

يعني أنهم لا يرضون أن يكون إيمانهم عن مجرد خبر، حتى يترقوا منه إلى مشاهدة المخبر عنه، فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر، إلى عين اليقين بالشهود كما طلب إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه إذ قال: : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانا، والمعلوم مشاهدا، وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي ﷺ بالشك في قوله: "**نحن أحق بالشك من إبراهيم**" حيث قال: : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قولٌ ثان: أنه على وجه النفي، أي لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال، ولم نشك نحن، وهذا القول صحيح أيضاً، أي لو كان ما طلبه للشك لكنّا نحن أحق به منه، لكن لم يطلب ما طلب شكا، وإنما طلب ما طلبه طمأنينة.

فالمراتب ثلاث، علم يقين يحصل عن الخبر، ثم تتجلّى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر،

(١) يعني صاحب منازل السائرين.

حتى يصير العلم به عين يقين، ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين، فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين، فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف، وبرزت الجحيم للغاوين، وشاهدوهما عيانا، كان ذلك عين يقين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧] فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فذلك حق اليقين»[(١)].

أكتفي بهذه النقول لأنّ الباقي من أقوال المفسرين يعود إليها.

ويهمنا هنا التأكيد على أنّ قول من قال إنّه عليه السلام شكّ في قدرة الله على إحياء الموتى قولٌ مرفوض قطعاً بلا ريب، بالنص القاطع وبما هو قطعي من حال الأنبياء.

ويبقى النظر في معنى طلبه ذاك، وما علّله به من قصد اطمئنان القلب.

وكل الأقوال في هذا لا دليل عليها إلاّ مجرد الظن والتحكم، إلاّ ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه، وهو ما رجّحه ابن جرير وغيره أنّ يقين إبراهيم وإيمان الأنبياء يبقى معرضاً لوسواوس الشيطان وإلقاء الخواطر، ولا يعني ذلك أنّ قلب الواحد منهم يقبلها أو حتى يتوقف مجرد التوقف في ردّها بما علّمه الله وأخلَصه واصطفاه به من حقائق الغيب وعلوم الدنيا والآخرة.

وكيف يشكّ في قدرة الله على الإحياء من يرى الليل والنهار خلْقَ الله للخلائق وإيجادَها من العدم، وهو يؤمن بالله ربّه ويؤمن بوجوده وقد نبّأه واصطفاه ؟ فهل يمكن أن يشك مثل هذا في قدرة الله المطلقة ؟ ومِن ذلك قدرتُه على إحياء الموتى ؟

وكيف يشك في ذلك من جادل النمروذ بالإحياء والإماتة فقال له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

(١) مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

وهذا يدل على صحّة ما ذكره ابن جرير وأيدّه أنّ إبراهيم سأل ربّه ما سأل ليصل إلى مرتبة من اليقين حتى لا يكون لما يلقي الشيطان أيّ أثر فلا ينزعج القلب حتى مجرد انزعاج، لأنّه قد حصلت له الطمأنينة والاستقرار بالمعاينة الحسية، وقد صحّ عن أبي هريرة قال جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[1]، فالصحابة رضي الله عنهم وهم أهل الإيمان لم يمنع يقينهم من ورود الوارد الشيطاني على قلوبهم، وهو ما جاء في التفسير أنّه ورد على إبراهيم عليه السلام فسأل ربّه معاينة الإحياء ليصبح قلبه غير قابل لهذا الوارد أصلاً، قال القرطبي: «وقد كان إبراهيم عَلِمَ ذلك عِلْم خَبَر ونظَر[2]، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة، **لأنّ علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك**».

وقال العلاّمة الآلوسي رحمه الله: «ومعنى الطمأنينة حينئذ سكون القلب عن الجوَلان في كيفيات الإحياء المحتملة بظهور التصوير المشاهد، **وعدم حصول هذه الطمأنينة قبل لا ينافي حصول الإيمان بالقدرة على الإحياء على أكمل الوجوه**، ولا أرى رؤية الكيفية زادت في إيمانه المطلوب منه عليه السلام شيئاً، وإنما أفادت أمراً لا يجب الإيمان به»[3].

قلت: كيف لا تزيد في إيمانه وهو ينصّ على أنّه طلب المشاهدة ليطمئن قلبُه، وهل هذا إلا زيادة في يقينه وإيمانه ؟

وقد ذهب قوم إلى أنّ سؤال إبراهيم كان عن كيفية الإحياء لا عن الإحياء نفسه فراراً من

---

(١) تقدم (ص١١).

(٢) أي استدلال.

(٣) وهذا غير صحيح بل هو مخالف لصريح الآية إذ سأل ذلك ليطمئن قلبه، والاطمئنان درجة في الإيمان.

توهم الشك في معنى السؤال، أي طلبه معاينة الإحياء.

وهذا وإن كان وارداً لكن الأصحّ في الآية أنّه سؤالٌ عن الإحياء نفسه لا عن كيفيته، هذا هو الأصح في معنى الآية، وهذا السؤال بهذه الصيغة لم يكن شكاً في قدرة الله، وإن كان من استعمالات السؤال بـ(كيف) الاستبعاد والشك، لكنّ هذا غير وارد في حق نبيّ من الأنبياء فكيف بإبراهيم الخليل، بل السؤال بـ(كيف) أيضاً يُستعمل لطلب المعاينة لأصل الشيء دون كيفيته، بدون شكّ في حدوثه، بدليل أنّ الله تعالى أراه الإحياء ولم يخبره عن الكيفية، وقد علّل إبراهيم سؤاله بأنّه يريد أن يطمئن قلبه، وهذا يحصل بمعاينة الإحياء ولا يحتاج إلى معرفة الكيفية، إلاّ إذا أريد بالكيفية الصورة الظاهرة في الإحياء فهذا ممكن، مثلما حصل لعزير، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فعُزير كان يعلم أنّ الله قادر على الإحياء كما نص في آخر الآية، وإنّما كان يتعجّب من قدرة الله على الإحياء فأراه الله الإحياء عياناً، وقال له في: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فقد استعمل الأمر بالنظر ليتحقق له اليقين بأنّه تعالى يحيى الموتى ويزول تعجُّبه من إحياء القرية.

وحتى إن قيل إنّ السؤال عن الكيفية فإنّ الكيفية ليست هي المقصودة بزيادة اليقين والاطمئنان وإنّما أصل الإحياء، ففي الحالين وعلى القولين فالأمر واحد، وهو حصول الطمأنينة بقدرة الله على إحياء الموتى.

وأمّا استدراك ابن عطية على ابن جرير[1] فهو في غير ذي جدوى، لأنّ ابن جرير لم يقل إنّ إبراهيم قد شكّ في قدرة الله الشك مستوي الطرفين ولا أقلّ منه كذلك، وإنما قال إنّ الشيطان ألقى في قلبه، أي أورد عليه خاطراً، وهذا نفس ما جوّزه ابن عطية، وهذا وارد على كل أحد ، قال تعالى في حقّ آدم: ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩-٢٠] فهاهو آدم يتعرض لوسوسة الشيطان، مع قرب العهد بربه، وهذا الخاطر أمر مزعج للمؤمن ولو كان على يقين من بطلانه، كما انزعج منه أصحاب النّبيّ ﷺ وذكرنا ذلك قريبا.

فأراد نبيّ الله وخليله أن يصل إلى درجة لا يقع فيه الخاطر أصلاً ولا يجد فيه موضعاً، بل ييأس الشيطان من ذلك إذا علم أنّ إبراهيم شاهد إحياء الموتى عياناً، فأيّ إيراد يمكنه بعد ذلك أو يحصل منه جدوى.

وأمّا قول ابن عطية بعد ذلك: « **ولا زيادة في هذا المعنى تمكن إلاّ السكون عن الفكر، وإلا فاليقين لا يتبعض**»، وقاله كذلك الآلوسي، فهذا غير صحيح، فاليقين كالتصديق والإيمان لا حدّ له كمالاً، بل كلما زادت الأدلّة زاد اليقين والتصديق، خاصة إذا كان الدليل معاينة لم تكن قبل فهل يُقال: إنّ اليقين لا يزداد لأنه لا يتبعّض ؟ وقد مرّ ما رواه ابن جرير بسنده الصحيح إلى سعيد بن جبير قال: «قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: يزداد يقيني».

قال ابن بطال: «والناس يتفاضلون فى التّصديق على قدر علمهم وجهلهم، فمن قَلَّ علْمُه كان تصديقه مقدار ذرّة، والّذي فوقه فى العلم تصديقه بمقدار بُرة وشعيرة، إلاّ أنّ التصديق الحاصل فى قلب كل واحد من هؤلاء فى أوّل مرة لا يجوز عليه النقصان، ويجوز عليه الزيادة

(١) وكذا قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٤١١).

بزيادة العلم والمعاينة، فأمّا زيادة التصديق بزيادة العلم، فقوله تعالى عند نزول السورة: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ٢٤] فهذه زيادة العلم، وأما زيادة التصديق بالمعاينة، فقول إبراهيم إذ طلب المعاينة، قال له ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فطلب الطمأنينة بالمعاينة، وهي زيادة في اليقين، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، فجعل له مزية على علم اليقين»[(١)].

وقال كذلك: «تأويل قول إبراهيم: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: بيقين البصر، واليقين جنسان: أحدهما يقين السمع، والآخر يقين البصر، ويقين البصر أعلاهما؛ ولذلك قال النبيّ ﷺ: "**ليس الخبر كالمعاينة**"[(٢)] حين ذكر قوم موسى وعكوفهم على العجل قال: فأَعْلمه الله أنّ قومه عبدوا العجل فلم يلق الألواح؛ فلما عاينهم عاكفين عليه غضب وألقى الألواح فتكسّرت، وكذلك المؤمنون بالقيامة والبعث والجنة والنار متيقّنون أنّ ذلك كلّه حق وهم في القيامة عند النظر والعيان أعلى يقينًا، فأراد إبراهيم أن يطمئنّ قلبه بالنظر الذى هو أعلى اليقين»[(٣)].

وقال البيهقي: «أخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله صلوات الله عليه أنه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومعلوم أن طمأنينة القلب بصدق وعد الله، أو بقدرته على ما خبر أنه فاعله إيمانٌ، فإنما يسأل الله تعالى ما يزيده إيماناً على إيمان، فثبت بذلك أنّ الإيمان قابل للزيادة.

فإن قيل: إنما سأل الله تعالى أن يضطرّه إلى العلم بإجابة الموتى والتصديق بما وقع العلم به

---

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ١٠٣).

(٢) تقدّم (ص٩).

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٥٢٥).

ضرورة، ولا يكون عبادة.

قيل: لم يسأل الله تعالى أن يضطرّه إلى العلم بإحيائه الموتى للقيامة، ولا الله تعالى فعل ذلك به، وإنما سأله أن يريَه كيف يحيي الأجساد بعد موتها وتقطّعها، فأراه ذلك عياناً في أربعة من الطير، وليس ذلك باضطرار إلى أنّ الناس يحيون بعد موتهم، لكنه أكّد اليقين المتقدم بأنّ الله تعالى قادرٌ على إحياء ما أمات وجمع ما يفرق، ثم ما ينشأ عن المشاهدة من ذلك في الطير من العلم بأنّ الذي قدر على ذلك لا يعجزه مثله في الناس استدلالٌ لا ضرورة، وهو فصل الإيمان في المؤمن يعرض للزيادة والله أعلم »[1].

وقال ابن أبي العز: «ولهذا قال النبي ﷺ: "ليس المخبر كالمعاين" وموسى عليه السلام لما أُخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشكّ موسى في خبر الله، لكن المخْبَر وإن جزَم بصدق المخبِر، فقد لا يتصوّر المخبَر به في نفسه، كما يتصوّره إذا عاينه، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]»[2].

وقال ابن حجر: «قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الاستفهام للتقرير، ووجهه أنّه طلب الكيفية وهو مُشعر بالتصديق بالإحياء.

قوله: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي ليزيد سكوناً بالمشاهدة المنضمّة إلى اعتقاد القلب، لأنّ تظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وكأنه قال: أنا مصدق ولكن للعيان لطيف معنى.

وقال عياض: "لم يشكّ إبراهيم بأنّ الله يحيي الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء، فحصل له العلم الأوّل بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته

(١) المنهاج في شعب الإيمان(١/ ٧٦) وصححت بعض الأخطاء المطبعية الواضحة من السياق.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية – ت الأرناؤوط» (٢/ ٤٦٧).

ومشاهدته، ويحتمل أنه سأل زيادة اليقين وإن لم يكن في الأوّل شك، لأنّ العلوم قد تتفاوت في قوّتها فأراد الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين، والله أعلم»[1].

وأمّا تعليل إبراهيم سؤاله رؤية الإحياء بطلب طمأنينة القلب، فإنّ عدم طمأنينة القلب تشمل عدم استقراره بسبب عدم اليقين وقبول وارد الشكّ، وهذا مُنتفٍ قطعاً عن إبراهيم.

وتشمل كذلك تعرّض القلب لواردات وخواطر يلقيها الشيطان فينشغل القلب بردّها أو ينزعج لورودها، فهذه لا تنافي اليقين والإيمان، وهذا ما حصل لإبراهيم، فاراد الرؤية العيانية لينقطع الوارد والخاطر الشيطاني بالكلّيّة، لأنّ المشاهدة تقطعها، خاصّة عن مثل إبراهيم وبقية أنبياء الله تعالى، وهذا بلاشك طلب زيادة من اليقين لا تتعارض مع حصول الواجب منه قبل ذلك، ولهذا قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومما يدل على صحة ما ذكرناه آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٣].

وقد اختلف المفسرون كذلك في توجيه سؤال الحواريين، منهم من رجح قراءة أخرى ﴿هل تستطيع ربَّك﴾ بمعنى هل تستطيع يا عيسى أن تدعو ربك، ومنهم من قال: إنّ سؤال الحواريين كان في بدء الدعوة وجهلهم بالله، ومنهم قرّر أنّه كان شكاً في قدرة الله، كما قال ابن جرير رحمه الله: «وخبر الله تعالى عن القوم ينبئ بخلاف ذلك، وذلك أنهم قالوا لعيسى إذ قال لهم: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ [المائدة: ١١٣]، فقد أنبأ هذا من قِيلهم أنّهم لم يكونوا يعلمون أنّ عيسى قد صدقهم، ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوته، فلا بيان أبين من هذا الكلام في أن القوم كانوا قد خالط

(١) الفتح (٦/ ٤١٢).

قلوبهم مرض وشك في دينهم وتصديق رسولهم، وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختباراً».

والصحيح كما اختاره جمع من المفسرين أنّ قولهم ليس بشك في الاستطاعة، وإنما هو تلطّفٌ في السؤال، وأدب مع الله تعالى، إذ ليس كلُّ ممكن عقلاً يمكن وقوعُه فعلاً، ولا لكلّ أحدٍ كذلك، والحواريون كانوا خيرة من آمن بعيسى، فكيف يُظَنّ بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كلّ شيء ممكن؟

كما أنّ هذا السؤال جاء بعد وصف الله لهم بالإيمان: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وهذا الترتيب في الآيات وسياق القصة لم يأت اعتباطاً، بل هو دليل على أنّ السؤال صدر من قوم مؤمنين، ولكن هذا الإيمان لن يكون أبداً كإيمان المعاينة ولذلك سألوا ما تطمئن به قلوبهم.

وقال بعض المفسرين: إنّ هذا السؤال لم يكن ليصدر منهم بعد مشاهدتهم آيات الله التي أجراها على يد عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وتخليق الطَّير من الطِّين، قال ابن عطية: «قرأ جمهور الناس ﴿هَل يستطيعُ ربُّك﴾ بالياء ورفع الباء من ربك. وهي قراءة السبعة حاشا الكسائي، وهذا ليس لأنهم شكّوا في قدرة الله على هذا الأمر (كامنة)[1] بمعنى هل يفعل تعالى هذا وهل تقع منه إجابة إليه؟ وهذا كما قال لعبد الله بن زيد :"هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟"[2] فالمعنى هل يخف عليك وهل تفعله؟

أما إنّ في اللفظة بشاعة بسببها قال عيسى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وبسببها مال فريق من الصحابة وغيرهم إلى غير هذه القراءة فقرأ علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير ﴿هل تستطيعُ ربَّك﴾ بالتاء ونصب الباء من (ربك)، المعنى: هل

(١) كذا في المطبوع ولم تتبين لي .

(٢) صحيح البخاري (١٨٥) والسائل هو عمرو بن أبي حسن الأنصاري ، انظر فتح الباري (١/ ٢٩٠).

تستطيع أن تسأل ربك؟ قالت عائشة رضي الله عنها: "كان الحواريون أعرف بالله من أن يقولوا هل يستطيع ربك"[1].

قال القاضي أبو محمد: نزّهتهم عائشة عن بشاعة اللفظ وإلا فليس يلزمهم منه جهل بالله تعالى على، وقول عيسى عليه السلام ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تقرير لهم، كما تقول: افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً، ولا خلاف أحفظه في أنّ الحواريين كانوا مؤمنين، وهذا هو ظاهر الآية.

وقال قوم: قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل عِلمهم بأنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويظهر من قوله عليه السلام : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ إنكار لقولهم ذلك، وذلك على قراءة من قرأ ﴿يستطيع﴾ بالياء من أسفل متوجّه على أمرين: أحدهما: بشاعة اللفظ، والآخر إنكار طلب الآيات والتعرض إلى سخط الله بها، والنبوات ليست مبنية على أن تتعنّت.

وأما على القراءة الأخرى فلم ينكر عليهم إلاّ الاقتراح وقلّة طمأنينتهم إلى ما قد ظهر من آياته.

فلما خاطبهم عليه السلام بهذه المقالة صرّحوا بالمذاهب التي حملتهم على طلب المائدة، فقالوا: نريد أن نأكل منها فنشرُف في العالم.

قال القاضي أبو محمد: لأنّ هذا الأكل ليس الغرض منه شبع البطن.

﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣] معناه يسكن فكرنا في أمرك بالمعاينة لأمر نازل من السماء بأعيننا وَنَعْلَمَ عِلم الضرورة والمشاهدة أن قد صدقتنا فلا تعترضنا الشبه التي تعرض في علم الاستدلال.

(١) لم أقف عليه مسنداً، ذكره كذلك النحاس في معاني القرآن .

قال القاضي أبو محمد: وبهذا يترجّح قول من قال: كان هذا قبل علمهم بآياته، ويدلّ أيضاً على ذلك أنّ وحي الله إليهم أن آمنوا إنّما كان في صدر الأمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة، ثم آمنوا ورأوا الآيات واستمرّوا وصبروا، وهلك من كفَر».

قلت: ومع وجاهة ما ذكره رحمه الله فلا مانع يمنع أن يكون سؤالهم هذا بعد أن شاهدوا الآيات، وذلك لأنّ تلك الآيات من جنس العلوم التي عرفها قومُهم من السحر وعلوم الطب، فلعلّهم أرادوا آية خاصّة بهم تكون الكرامة لهم، وهذا بيّنٌ من قولهم نأكل منها ونكون عليها من الشاهدين.

وشيء آخر، أنّ هذا لو كان في بدء الأمر لما كان هناك حاجة إلى إنزال المائدة ولقال لهم عيسى: ها أنذا آتيكم بما هو أعجب من إنزال مائدة ، والحال أنّه لم يذكر هذا بل سأل الله إنزال المائدة بعد أن عرف وجه سؤالهم .

كما أنّ طلب الآيات في أوّل دعوة الرسول ليس مما يُستنكر حتى يقال لهم: اتقوا الله، ولكن سؤالهم لما كان بعد أن رأوا آياته قال لهم اتقوا الله، لأنّه في ظاهره سؤال تعنت، لكن لما بينوا له سبب ذلك أجابهم إليما سألوه .

وعلى الحالين فإنّها دليل على ما في آية إبراهيم من من السؤال لأجل زيادة اليقين والإيمان واطمئنان القلب.

قال العلاّمة ابن سعدي رحمه الله: «ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيا للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً.

فأخبر الحواريون أنه ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة

إلى ذلك فـ﴿ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانية، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين. كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم صِدْق ما جئت به، أنه حقّ وصدق ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك».

اشتراط اليقين في صحة الإيمان

لا تختلف كلمة العلماء من أهل السنّة وسائر الفرق المنتسبة للإسلام في اشتراط اليقين بالله وبما جاء من عنده، وإن تفاوتت تفسيراتهم لهذا اليقين المُشترط وطريق الوصول إليه، قال القاضي عياض رحمه الله عند كلامه عن بعض المكفرات: «وكذلك من أضاف إلى نبينا الكذب فيما بلغه وأخبر به، أو شك في صدقه، أو سبه... فهو كافر بإجماع»، وقال: «اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه، أو سبهما، أو جحده، أو حرف منه آية، أو كذب به أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما حرم به من حكم أو خبر، أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم بذلك، أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع»[(١)].

ويهمنا هنا ما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة التي استندت عليها كلمة العلماء من أهل السنّة وسائر الفرق المنتسبة للإسلام، فإنّ المتتبّع لهذه النصوص يجد أنّ التعبير القرآني جاء باستعمال لفظ (اليقين)، ولفظ (العلم)، ولفظ (الإيمان)، ولفظ(الظنّ)[(٢)]، كل ذلك في سياق مدح المؤمنين أو تقييد الإيمان وتعليقه بهذه الأفعال تعليقاً يدل على اشتراط اليقين في صحة

(١) الشفا(٢/ ١٠٦٩و ١١٠١).

(٢) بمعنى اليقين الذي ليس بيقين العيان.

الإيمان بالله.

أما لفظ (اليقين) ففي مثل قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١-٤].

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ١-٣].

وقوله عن فاقدي الإيمان: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وقال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وأمّا لفظ (العلم) ففي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

وأمّا لفظ (الإيمان) فكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، وقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

وأمّا لفظ (الظنّ) ففي مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] (١).

وخلاصة المقصود أنّ الواجب على المؤمن أن يؤمن ويستيقن بالله وبما جاء عن الله تعالى، لكن هذا اليقين أو هذا الجزم له حدّ لا يجوز أن ينزل عنه، وله كمال واجب.

فحدّه أن لا يستوطن الريب والشك قلبه بحيث يحكم بجواز أن لا يكون اعتقاده موافقاً للحق في نفس الأمر، حتى لو فرض أنّه رجح عنده بنسبة كبيرة، فإنّ هذا لا يكفي في صحة الاعتقاد والإسلام.

وعندما نقول: لا يدخل الشكّ قلبه لا نعني أنّه لا يقبل ورود الشبه عليه والشكوك، بل المقصود أن لا يكون لها في قلبه محل ووطن، بل يكون في قلبه جزم ينافيها ويضادّها، ولا يسمح لها بالاستقرار فيه.

وأما كماله الواجب فهو ما يُنتج العمل والامتثال، فإنّ اليقين من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص كما هو متقرر عند أئمّة السلف، فكل ما كان الإيمان واليقين أكمل وأقوى كان العمل بالجوارح أكمل وأقوى.

مراتب اليقين

اليقين من حيث هو على مراتب، فإنّه نتيجة لعلوم وأخبار ومشاهدات وبراهين تشكّله في

(١) وسيأتي المزيد.

قلب العبد، وكلما كانت المشاهدات والعلوم والبراهين أكثر وأقوى وأكمل كان اليقين بحسبها من القوة والكمال.

قال ابن القيم رحمه الله: «ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧]، فهذه ثلاث مراتب لليقين، أوّلها عِلْمُه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة، تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقّنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين، وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرْقُ ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسّمع، وعين اليقين للبصر... وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادةً لنفسه وطمأنينةً لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن، لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان.

المرتبة الثالثة: مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها، فَهُم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب فلهذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١] فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقية التي تفاوت فيها

مراتب المؤمنين»[1].

والّذي يظهر من خلال النصوص وما ذكره العلماء أنّ اليقين بالعلم سببه إمّا الثقة بالخَبَر، أو الثقة بالمخبِر.

فالأول: وهو الثقة بالخبر، يكون بسبب البرهان العقلي، أو الحس، وهذا يقينه أعلى ولا يورد عليه شبهة في العادة، وإن وردت فلا يكون لها وزن ولا يضطرب بسببها القلب، لأنّ المعقولات اليقينية والمحسوسات ثابتة بنفسها لا بغيرها، وما كان من الأخبار عن الله ورسله واليوم الآخر فهي أكثر ثباتاً، لأنّ صاحب هذا اليقين عادة يكون أصحاب المعاينة كالأنبياء والرسل وبعض أتباعهم[2]، أو من أهل العلم بالمنقول والمعقول مثل كبار الأئمة من الصحابة ومن قبلهم من أتباع الرسل.

وأمّا الثاني: وهو الثقة بالمخبِر فهو يقين مقبول شرعاً بلا شكّ، وهو ما آمن عليه أكثر الخلق، فإنّ غالب الصحابة وغيرهم آمنوا ثقة بالمخبِر وهو النّبيّ ﷺ، وإن كان حصل لبعضهم بعد ذلك الرقيّ في درجات الإيمان واليقين بالتفكر أو المعاينة أو المجاهدة، ومن ذلك حديث ضمام بن ثعلبة، فعن أنس قال: كنا مع رسول الله ﷺ جلوساً فجاء رجل من أهل البادية على جمل له فأناخه ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ قال: قلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، قال: ورسول الله ﷺ متكئ بين أظهر أصحابه، قال: فقال: يا محمد، قد جئتك يا ابن عبدالمطلب، إني سائلك فمشتدة مسألتي عليك فلا تجد عَلَيّ في نفسك، فقال له النبي ﷺ: «**سَلْ عمّا بدا لك**»، فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «**صدق**»، قال: يا محمد، أنشدُك بربك وبربّ من كان قبلك آلله بعثك إلى الخلق كلهم؟ قال

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨٨-١٨٩) بتصرف يسير.

(٢) والمقصود بالمعاينة هنا معاينة الآيات بالأبصار كمعاينة إحياء الموتى الّتي تكررت لإبراهيم وعيسى وعزير.

النبي ﷺ: «نعم»، قال: فزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: «صدق»، قال: أنشدك بربك ورب من كان قبلك آلله أمرك أن نصلي الخمس في اليوم والليلة؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم»، قال: فزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا، فقال: «صدق»، قال: أنشدك بربك وبرب من كان قبلك آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها في فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم»، قال: فزعم رسولك صوم شهر رمضان في سنتنا، قال: «صدق»، قال: يا محمد، نشدتك بربك وبرب من كان قبلك آلله أمرك أن تصوم الشهر في السنة؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم»، وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «صدق» قال: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي، وأنا ضمام بن ثعلبة أحد بني سعد بن بكر، فبالذي بعثك بالحق لا أزيد عليهنّ شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلنّ الجنة»[1].

قال ابن رشد في مقدماته: « الإيمان يصح باليقين الذي قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد، وبأوّل وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به في غير ما آية»[2]، وقال: « وقد يصحّ تيقّن المعتقد من غير علم، فمَن آمن بالله بتقليدٍ أو نظرٍ يحصل به اليقين أو يقع به العلم فهو مؤمن»[3].

وهذا اليقين قد يورَد عليه ما ينتج عنه اضطراب القلب وانزعاجه، وليس ذلك شكاً، كما جاء عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه ؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٣) ومسلم (ح ١٢).

(٢) المقدمات (١/ ٥٨).

(٣) المقدمات (١/ ٦٠).

(٤) تقدّم (ص١١).

وهو في هذا المستوى يشترك مع الظن، ولهذا سمى الله هذه الدرجة من اليقين ظنًا في نحو قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، وهو الظن الذي يستعمل بمعنى اليقين الذي ليس بيقين عيان في لسان العرب كذلك.

والخلاصة أنّ اليقين الواجب لا يُشترط فيه أن لا ترد عليه الواردات والخواطر، ولا يُشترط أن يكون مبنيا على البرهان العقلي أو الحسي، بدليل من أسلم من العرب تصديقاً له ﷺ، كما في قول أبي بكر في حادثة الإسراء، فعن عروة قال: «سعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هذا صاحبك، يزعم أنه قد أسري به الليلة إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أَوَقال ذلك ؟ قالوا: نعم، قال أبو بكر رضي الله عنه: فأنا أشهد إن قال ذلك لقد صدق »[(١)]، وكما في حديث ضمام بن ثعلبة المتقدّم فإنّه كان يستحلفه، ولو كان ذلك مبنياً على برهان عقلي لما كان لاستحلافه مكان، بل يصحّ أن يكون ثقةً بالمخبر وهو النبيّ ﷺ.

أمّا المتكلمون فاشترطوا أن يكون يقين العبد وتصديقه عن نظر واستدلال لا عن تقليد، وشكك بعضهم في صحة إيمان المقلّد، وبعضهم جعله عاصياً بذلك وإن صحّ إيمانه[(٢)]، والدليل العقلي عندهم ليس على إطلاقه وإنما يقصدون دلائلهم العقلية على حدوث الأجسام وقيام الأعراض بها ونحو ذلك، قال النووي رحمه الله تعليقاً على قوله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله**»[(٣)] : «وفيه دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢و٧٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (ح١٤٣٠)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٦١)، وصحّحه الحاكم والذهبي والشيخ الألباني – رحِمَه الله – في الصحيحة (ح٣٠٦) وله فيه بحث.

(٢) انظر البحر المحيط للزركشي (٨/ ٣٢٤) وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

السلف والخلف أنّ الانسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقاداً جازماً لا تردّد فيه كفاه ذلك، وهو مؤمن من الموحدين، ولا يجب عليه تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله تعالى بها، خلافاً لمن أوجب ذلك وجعله شرطاً في كونه من أهل القبلة، وزعم أنه لا يكون له حكم المسلمين إلاّ به، وهذا المذهب هو قول كثير من المعتزلة وبعض أصحابنا المتكلمين، وهو خطأ ظاهر، فإنّ المراد التصديق الجازم، وقد حصل، ولأنّ النبي ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ﷺ ولم يشترط المعرفة بالدليل، فقد تظاهرت بهذا أحاديث في الصحيحين يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعي»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أمّا في المسائل الأصولية فكثير من المتكلمة والفقهاء من أصحابنا وغيرهم من يوجب النظر والاستدلال على كل أحد، حتى على العامة والنساء، حتى يوجبوه في المسائل التي تنازع فيها فضلاء الأمة، قالوا: لأن العلم بها واجب ولا يحصل العلم إلا بالنظر الخاص.

وأما جمهور الأمة فعلى خلاف ذلك، فإنّ ما وجب علمه إنّما يجب على من يقدر على تحصيل العلم، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق، فكيف يُكَلّف العلم بها، وأيضاً فالعلم قد يحصل بلا نظر خاص، بل بطرق أخر من اضطرار وكشف وتقليد من يعلم أنه مصيب وغير ذلك»[2].

وقال الشوكاني رحمه الله: «فيا لله العجب من هذه المقالة التي تقشعر لها الجلود، وترجف عند سماعها الأفئدة، فإنها جناية على جمهور هذه الأمة المرحومة، وتكليف لهم بما ليس في وسعهم ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد، ولا قاربوها الإيمان

(١) المنهاج(١/ ٢١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٢).

الجُمْلي، ولم يكلفهم رسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم بمعرفة ذلك، ولا أخرجهم عن الإيمان بتقصيرهم عن البلوغ إلى العلم بذلك بأدلته، وما حكاه الأستاذ أبو منصور[1] عن أئمة الحديث من أنه مؤمن، وإن فُسّق، فلا يصحّ التفسيق عنهم بوجه من الوجوه، بل مذهب سابقهم ولاحقِهم الاكتفاء بالإيمان الجُمْلي، وهو الذي كان عليه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، بل حرم كثير منهم النظر إلى ذلك»[2].

وقال العلامة ابن الوزير: «وهذا القدر -أعني الدخول في الاسلام على جهة الاحتياط- من غير علم بصحّته بالأدلّة يحصّل أدنى مراتب الاسلام عند كثير من علماء الاسلام، كمن لا يكفّر المقلدين لأهل الحق، ومن يقول المعارف ضرورية وغيرهم، وحجّتهم على ذلك أمور، منها: تقرير النبي ﷺ للعامة وقبول الشهادة منهم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤] وآخر الآية حجة حسنة على ذلك.

ومنها: ما صح واشتهر وتواتر في أحاديث الشفاعة من تقرير إيمان المشفوع لهم بمثاقيل الذر وأدنى أدنى من ذلك»»[3].

قلت: شرط ذلك أن لا يكون في قبول الإسلام شكٌّ مستوي الطرفين بل يكون ذلك قبول من القلب، وكلامه تشهد له نصوص الشريعة، ومن ذلك حديث عرضه الإيمان على عمّه أبي طالب وهو في سكرات الموت، روى البخاري عن ابن المسيب، عن أبيه: أن أبا طالب

---

(١) يعني عبد القاهر بن طاهر، أبو منصور البغدادي، أحد أعلام الشافعية، توفي سنة (٤٢٩هـ)، وله مصنفات في النظر والتعليقات، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٧٢).

(٢) إرشاد الفحول (٢/ ١٢٦).

(٣) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات» (ص٢٣).

لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «**أيْ عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله**» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبدالمطلب»[(١)].

وفيه عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[(٢)].

وإذا تقرر ما سبق فمن المهم تناول لفظ ورد في القرآن كثيرا ألا وهو الظن، وفهم سياقاته يكمّل ما ذكرناه عن اليقين الواجب.

الظن

بالنظر في معاجم اللغة نراها أجمعت على أنّ "الظنّ" مصدر (ظَ نَ نَ)، قال بعضهم هو الحسبان [(٣)]، أو: خلاف اليقين[(٤)]، ويُستعمل في اليقين والعلم مجازاً [(٥)]، ومنهم من قال: إنّ الظنّ بمعنى الشك وبمعنى اليقين [(٦)] من باب الأضداد.

وقيل: «الظن: اسم لما يحصل عن أمارة ومتى قويت أدت إلى العلم ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حد التوهّم»[(٧)].

---

(١) صحيح البخاري (٣٨٨٤).

(٢) صحيح البخاري (١٣٥٦).

(٣) المغرب في ترتيب المعرب (٢/ ٣٥).

(٤) المصباح المنير (٢/ ٣٨٦).

(٥) المغرب في ترتيب المعرب (٢/ ٣٥).

(٦) كتاب العين (٢/ ١٤٥).

(٧) مفردات القرآن (٢/ ٥٤).

وقيل: «الظن التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم»[(١)].

وفي اللسان: هو شك ويقين، إلاّ إنّه ليس بيقين عيان، إنّما هو يقين تدبّر، فأمّا يقين العيان فلا يُقال فيه إلاّ(علم)»[(٢)].

وقال الجرجاني: «الظنّ: الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويُستعمل في اليقين والشك»[(٣)].

وفي الصّحاح: "الظن" معروف، وقد يوضع موضع العلم، قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظُنّوا بألفي مدجّج * سراتهم في الفارسيّ المسرد[(٤)]

أي: استيقنوا، وإنّما يخوف عدوه باليقين لا بالشك.

وفي حديث أُسيد بن حضير: «**وظننّا أن لم يجد عليها**»[(٥)] أي: علمنا.

وفي أثر ابن سيرين عن عَبيدة السلماني: سألته عن قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] فأشار بيده، فظننتُ ما عنى»[(٦)] أي: علمت.

والخلاصة: أنّ لفظ الظن يُستعمل في اليقين والعلم وفي الشك سواء ترجح أحد طرفيه أم لا.

---

(١) القاموس المحيط (٤/ ٣٤٨).

(٢) لسان العرب (١٣/ ٢٧٢).

(٣) التعريفات (١٨٧).

(٤) الصحاح للجوهري (٦/ ٢١٦٠).

(٥) الحديث أخرجه مسلم (٣٠٢) واللفظ لأبي داود في السنن (ح٢٥٨)، وأُسيد -بالضم- بن حضير بن سماك بن عتيك الأنصاري الأشهلي أبو يحيى، وقيل في كنيته غير ذلك كان أحد النقباء ليلة العقبة واختلف في شهوده بدراً، توفي في خلافة عمر رضي الله عنه تهذيب التهذيب (١/ ٣٠٣).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (١٧٦٣).

ولا يهمنا هنا كونه حقيقة في الشكّ مجازاً في اليقين[1]، وإنّما المهم هو أنّ اللغة جاءت بصحة الإطلاق عليهما على حد سواء، وإنّما يحدد المراد من اللفظ سياق الكلام وسباقه، وقال بعضهم: إنّ الظن لا يُستعمل بمعنى اليقين والعلم فيما يكون محسوساً[2].

قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]: « وأطلق الناس أن الظن هنا بمعنى اليقين، ولو قال بدل ﴿ظنوا﴾: ﴿وأيقنوا﴾ لكان الكلام متسقاً، على مبالغة فيه، **ولكن العبارة بالظن لا تجيء أبداً في موضع يقين تام قد ناله الحس**، بل أعظم درجاته أن يجيء في موضع علم متحقق، لكنه لم يقع ذلك المظنون، وإلا فما يقع ويحس لا يكاد توجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن»[3].

إطلاقات الظن في القرآن

نزل القرآن بلغة العرب، واستعمل الأساليب اللغوية والمفردات العربية التي يعرفونها، ولذا فَهِم مشركو قريش الخطاب القرآني وتعاملوا معه كما فهموه قبولاً ورداً، وكان النّبيّ ﷺ يتلو عليهم الوحي دون الحاجة لشرحه لهم، والظنّ من هذا الباب جاء في السياق القرآني بمعنى الشك كما جاء بمعنى اليقين، قال الفيرزآبادي: « ورد الظنُّ في القرآن مجملاً على أربعة أوجه: بمعنى اليقين، وبمعنى الشك، وبمعنى التهمة، وبمعنى الحسبان»[4].

---

(١) وإن كان ذلك غير مسلّم لقائله؛ كما في مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٣٦١): "الظاء والنون أصيل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشك".

(٢) تاج العروس (٣٥/ ٣٦٧).

(٣) المحرر الوجيز، (٧/ ١٤٧).

(٤) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٥٤٥).

أمّا ما جاء بمعنى اليقين فمنه:

١ . قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦].

قال ابن جرير رحمه الله: «إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة، أنه"يظن" أنه ملاقيه، والظن: شك، والشاك في لقاء الله عندك بالله كافر؟

قيل له: إنّ العرب قد تسمّي اليقين"ظناً"، والشك"ظناً"» ثمّ ساق بإسناده عن أبي العالية قال: «إنّ الظن ههنا يقين» وعن مجاهد، قال: «كل ظن في القرآن يقين» وفي رواية: «كلُّ ظن في القرآن فهو علم»، وعن السدّي: قال: «أما "يظنون" فيستيقنون»، وقال ابن زيد في قوله: «لأنهم لم يعاينوا، فكان ظنهم يقينا».

٢ . قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: «والظن في هذه الآية بمعنى اليقين؛ لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوا الواقع، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أ نهم موقنون بالواقع؛ كقوله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]...ومن إطلاق الظن على اليقين قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦] أي: يوقنون أنهم ملاقوا ربهم، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٠]، فالظن في هذه الآيات كلها بمعنى اليقين، والعرب تطلق الظنّ على اليقين وعلى الشك... وما جرى على ألسنة العلماء من أن الظنّ جلّ الاعتقاد اصطلاح للأصوليين والفقهاء، ولا مشاحة في الاصطلاح».

٣. وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨].

قال الشنقيطي رحمه الله: «الظن هنا بمعنى اليقين، لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص، أي ليس لهم مفر ولا ملجأ... وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم، هو التحقيق إن شاء الله، لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك».

وأمّا النصوص التي جاء الظنّ فيها بمعنى الشك، فمنها:

١. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

قال الطبري: «ومعنى قوله: ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إلاّ يشكون، ولا يعلمون حقيقته وصحته، و"الظن" – في هذا الموضع – الشك».

وقال القرطبي رحمه الله: «﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يكذبون ويحدثون، لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون، وإنّما هم مقلدون لأحبارهم فيها يقرءون به، قال أبو بكر الانباري: وقد حدثنا أحمد بن يحيى النحوي أنّ العرب تجعل الظن علماً وشكاً وكذباً، وقال: إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظن يقين، وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظن شك، وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظن كذب، قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أراد إلاّ يكذبون».

٢. وقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال البغوي رحمه الله: « يريد أن دينهم الذي هم عليه ظنٌّ وهوى لم يأخذوه عن بصيرة ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون».

٣. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

قال الطبري: « وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلاّ ظناً، يقول: إلاّ ما لا علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم منه في شكٍّ وريبة﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ يقول: إنّ الشك لا يغني من اليقين شيئًا، ولا يقوم في شيء مقامَه».

٤. وقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]، قال الطبري: «يقول: ما يتبعون في قيلهم ذلك ودعواهم إلا الظن، يقول: إلا الشك لا اليقين... وإن هم إلا يتقوّلون الباطل تظنِّيا وتَخَرُّصاً للإفك، عن غير علمٍ منهم بما يقولون».

٥. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

قال القرطبي: « الظن هنا شك، فكَفَر على الشك، لأنه قد رأى من البراهين ما لا يخيل على ذي فطرة».

٦. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، قال ابن كثير رحمه الله: «﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلاّ توهماً، أي مرجوحاً ؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: بمتحققين».

٧. وجاء الظن كذلك قسيماً للعلم كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وهذه النصوص –سواءٌ منها ما دل على اليقين أو على الشك– متفاوتة في قوة الدلالة على

أحد المعنيين، فاليقين ليس على مرتبة واحدة، والشك ليس على مرتبة واحدة.

وخلاصة الأمر أنّ استعمال لفظ الظن تعبيراً به عن الإيمان وقبول الإسلام شائع في القرآن والسنة، وهذا يعطي إشارة كذلك إلى أنّ الإيمان والإسلام يقبل في أدنى درجات اليقين والظن الذي لا يعارضه ظن آخر أو اليقين في أدنى درجاته كما مر من كلام الأئمّة.

وهذا خلاف ما يقرره المتكلمون في كتبهم وتأثر به بعض المنتسبين للسنة، وكان سببا لوسواس كثير من العامة الذين شكوا في إيمانهم بسبب ظنهم فساد إيمانهم، إذ لا يصل إلى درجة اليقين التي يتصورونها، وهذا غير صحيح على مذهب السلف، وهذا ما يفيده قوله ﷺ: «**لا يزْني الزّاني حينَ يزْني وهوَ مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ، ولا يسرِقُ السّارقُ حين يسرقُ وهو مؤمِن**»[1]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالحقّ أن يقال: نفس التّصديق المفرّق بينه وبين الكافر لم يُعْدَمْه، لكن هذا التّصديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدّقاً بأنّ الله حرّم هذه الكبيرة، وأنّه توعّد عليها بالعقوبة العظيمة، وأنّه يرى الفاعل ويشاهده، وهو سبحانه وتعالى مع عظمته وجلاله وعلوّه وكبريائه يمقت هذا الفاعل، فلو تصوّر هذا حقّ التصوّر لامتنع صدور الفعل منه، ومتى فعل هذه الخطيئة فلا بدّ من أحد ثلاثة أشياء:

إمّا اضطراب العقيدة، بأن يعتقد بأنّ الوعيد ليس ظاهره كباطنه، وإنّما مقصوده الزّجر كما تقوله المرجئة، أو أنّ هذا إنّما يحرم على العامّة دون الخاصّة، كما يقوله الإباحيّة، أو نحو ذلك من العقائد الّتي تخرج عن الملّة.

وإمّا الغفلة والذّهول عن التّحريم وعظمة الربّ وشدّة بأسه.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإمّا فرط الشّهوة، بحيث يقهر مقتضى الإيمان ويمنع موجبه، بحيث يصير الاعتقاد مغموراً مقهوراً، كالعقل في النّائم والسّكران، وكالرّوح في النّائم.

ومعلومٌ أنّ الإيمان الّذي هو الإيمان ليس باقياً كما كان، إذ ليس مستقراً ظاهراً في القلب، واسم المؤمن عند الإطلاق إنّما ينصرف إلى من يكون إيمانه باقياً على حاله عاملاً عمله.. كذلك الزّاني والسّارق والشّارب والمنتهب، لم يعدم الإيمان الّذي به يستحقّ ألاّ يخلّد في النّار، وبه ترجى له الشّفاعة والمغفرة، وبه يستحقّ المناكحة والموارثة، لكن عدم الإيمان الّذي به يستحقّ النّجاة من العذاب، ويستحقّ به تكفير السيئات، وقبول الطاعات، وكرامة الله ومثوبته، وبه يستحقّ أن يكون محموداً مرضياً، »[1].

❁ ❁ ❁

نهاية الجزء الثّاني ، ويتلوه الجزء الثّالث :

قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]

والله الموفق وهو المعين.

(١) الفتاوى ٧ / ٦٧٢ وما بعدها.